مطالعات فى التصوف

عوارف المعارف — ماهية التصوف — أصل كلمة صوفى

— ٣ —

لعل حظ كل من البابين الخامس والسادس من الأهمية والقيمة العلمية أكثر من حظ غيرهما . فهذان البابان يدلان دلالة واضحة مستقيمة لا لبس فيها ولا اعوجاج على ماهية التصوف وكنهه وعلاقته بالفقر والزهد ، والفرق بينه وبين الفقر والزهد . هذا هو ما يتناوله الباب الخامس من كتاب عوارف المعارف فيما قدم لنا فيه مؤلفه من تعريفات متنوعة للتصوف . أما الباب السادس فانه يظهرنا على مسألة ليست أقل من سابقتها خطرا . ولكنها على العكس أبعد ما تكون أثرا فى اعانتنا على فهم التصوف وما مر به من أطوار فهما مستقيما . وأعنى بها مسألة الاصل الذى صدرت عنه كلمة صوفى وتلك مسألة قد عرض لها مؤلف عوارف المعارف فى نهاية الباب الاول من كتابه فأشار اشارة موجزة الى أن هذه اللفظة لم تذكر فى القرآن وإنما تركت وذكر مكانها لفظ المقرب . وإذن فالمؤلف يفصل فى الباب السادس من كتابه ما أجمل فى الباب الأول . وهو يعرض علينا فى شىء من الاستطراد الآراء المختلفة التى رآها العلماء المختلفون فى الاصل الذى أشتقت منه هذه الكلمة . وهو ينتهى من هذه الآراء كلها الى الرأى الذى يلائم طبيعة الاشتقاق اللغوى من ناحية . ويدل دلالة صحيحة على طبيعة الصوفية وماهية التصوف من ناحية أخرى . وبالجملة يمكننا أن نقول أن هذين البابين من كتاب عوارف المعارف أقدر على اعطائنا فكرة عامة شاملة تستطيع أن تظهرنا على لب التصوف .

١ — ففى الباب الخامس يقدم الينا المؤلف طائفة من التعريفات اختلفت فى مبانيها واتفقت فى معانيها . وهو يظهرنا من خلال هذه التعريفات على ماهية التصوف والفقر والزهد . ثم هو ينتهى من هذا كله الى أن هناك فرقا بين التصوف من ناحية وبين كل من الفقر والزهد من ناحية أخرى . كما أنه ينتهى الى أن أساس التصوف وقوامه انما هو الفقر ولكى أكون لديك صورة صادقة لما اشتمل عليه هذا الباب لابد من أن أقف بك وقفة قصيرة تلم فيها بأهم التعريفات التى عرضها علينا المؤلف لتتبين منها ماهية التصوف :

(ا) قال رويم : « التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار . والتحقق بالبذل والايثار . وترك التعرض والاختيار . »

(ب) وسئل الجنيد عن التصوف ماهو . فأجاب بقوله : « ان تكون مع الله بلا علاقة . »

(ج) وقال معروف الكرخى : « التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق . فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف » .

وبعد أن ذكر المؤلف هذه التعريفات ، تراه قد قدم لنا تعريفات أخرى للفقر والفقير اليك أهمها :

(ا) سئل الشبلى عن الفقر فقال : « ألا يستغنى بشىء دون الحق »

(ب) وقال أبو الحسين النورى : « نعت الفقير الكون عند العدم . والبذل والايثار عند الوجود »

وانتهى مؤلفنا من هذه التعريفات التى قدمت ، الى أن هناك اشتباها بين التصوف والفقر . فانت ترى مثلا ان اشياء بعينها تذكر فى معنى التصوف يذكر مثلها فى معنى الفقر . وإن اشياء بعينها يرد ذكرها فى معنى الفقر يرد ذكر مثلها فى معنى التصوف . ومن هناك كان الاشتباه . ومن هنا أيضا كان لابد من التحقيق الذى يكشف الفاصل بين كل من التصوف والفقر ، والفرق الذى يميز ويحدد ماهية كل من التصوف والفقر ، وفوق هذا فان الاشتباه ليس قاصرا على التصوف والفقر فحسب وانما هو قد تجاوزهما الى التصوف والزهد . واذن فلا بد من التمحيص الدقيق الذى يبين الفرق بين التصوف والفقر من ناحية والتصوف والزهد من ناحية اخرى . بحيث نلمس الاشتباه الذى يمكن أن يكون بين كل من هذه الاشياء الثلاثة . ونميز الفرق بينها تمييزا يحدد كلامنا تحديدا من شأنه أن يحول بين اندماج بعضها فى بعض أو تشابه بعضها مع بعض .

فانت اذا انعمت النظر ودققت الفكر فى هذه المسألة تبين لك ان التصوف غير الفقر ، وان الزهد غير الفقر ، وان التصوف غير الزهد . وليس التصوف غير اسم جامع لمعانى الفقر والزهد باضافة صفات ونعوت لابد منها لكى يكون الرجل صوفيا . فقد يكون الرجل زاهدا وقد يكون فقيرا ولكنه ليس صوفيا . ولكنه لكى يكون صوفيا لابد له بين أن يكون زاهدا وفقيرا .

وليس التصوف زهدا أو فقرا باضافة صفات ونعوت فحسب ، وانما هو شىء آخر ابلغ وأروع من هذا كله وأقدر على تهذيب النفس ، وتنقية القلب ، وتصفية الضمير ، هو كما قال ابو محمد الحريرى : « الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج عن كل خلق دنى .

وأهل الشام لا يميزون بين التصوف والفقر . فهم يذهبون الى

الله وصف الفقراء بالصوفية . وإلى أن الصوفية سموا كذلك لانهم فقراء . ولكن مؤلفنا قد تناول هذه المسألة بالدرس والتحقيق فاوضح غامضها وكشف عن وجه الحقيقة فيها بحيث اظهر لنا فى وضوح وجلاء الفروق بين التصوف والفقر . وأول هذه الفروق هو ان الفقير فى فقره متمسك به، راض عنه، مطمئن اليه . وهو فى هذا كله قانع بما سيجد عند الله من العوض . وهو كلما أمعن فى التطلع الى هذا العوض ازداد اعراضا عما فى الدنيا من اعراض زائلة وزخارف باطلة . وأما الصوفى فلا يرغب عن زخرف الدنيا وعرضها ابتغاء هذه الاعواض الموعودة ولكنه يفعل هذا من أجل الاحوال الموجودة . وثانى هذه الفروق هو أن الفقير حين يتمسك بفقره ويمعن فى ترك الدنيا واعراضها انما يفعل هذا بأرادته واختياره على حين انك ترى الصوفى قد تجرد من هذا الاختيار وهذه الارادة . فهو فى جميع احواله قد محيت فيه ملكة الاختيار وفنيت أرادته فى أرادة الله فناء تاما بحيث الا يصدر فى شىء الا عن أرادة الله . ولا يرى فضيلة ما فى فقر او غنى ، ولكن الفضيلة عنده كائنة فيما اقامه الله فيه من حال . وليس ادل على ان الصوفى قد فنيت ارادته فى ارادة الله ، من قول الجنيد الذى عرف فيه التصوف بأنه . « هو ان يميتك الحق عنك ويحييك به » فمن هذا ترى الفرق واضحا بين التصوف والفقر . كما ترى ان التصوف قوامه ودعامته الفقر بمعنى أن الوصول الى مراتب التصوف انما يتوسل اليه بالفقر . على أن الفرق بين التصوف والفقر لا يقف عند هذا الحد ، وانما هناك فرق ثالث يمكن تلخيصه فى أن الصوفى هو من اذا استقبله حالان حسنان أو خلقان حسنان كان مع الاحسن . على حين أن الفقير والزاهد لا يميزان بين الحالين الحسنين أو الخلقين الطيبين . بل هما يختاران من الاخلاق ما هو ادعى الى الترك والخروج عن شواغل الدنيا حاكمين بعلمهما . وعلى العكس من هذا ترى أن الصوفى يحكم على الاشياء ويستبين الاحسن بما الهم من عند الله مستعينا فى ذلك بصدق التجائه وحسن انابته وعلمه بربه . وبعبارة اخرى يمكنك أن تقول أن الصوفى لا يرى فى الاشياء الا ما يظهره الله عليه ولا يحكم عليها الا بما أوحى اليه . فالتصوف على حد قول رويم ليس الا استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد . أو هو كما قال بعضهم أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى . والصوفى — كما قال سهل بن عبد الله — هو: « من صفا من الكدر . وامتلا من الفكر وانقطع عن البشر . واستوى عنده الذهب والمدر »

وخلاصة هذا كله هى أن الفقر أساس التصوف وقوامه . وان التحقق بأحوال التصوف ومقاماته بنى على الفقر والزهد فيما اشتملت عليه الدنيا من زخرف ومتاع . وقد قص علينا مؤلف عوارف المعارف قصة رويت عن ذى النون المصرى ، ولا بأس من ايرادها فهى تظهرنا على ما انطوت عليه نفوس الصوفية من تمسك بالفقر ، وامعان فى الزهد ، واغراق فى الاعراض عن ملذات الدنيا وشهوات النفس .

قال ذو النون . « رأيت ببعض سواحل الشام امرأة فقلت : من أين أقبلت ؟ قالت : من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فقلت : وأين تريدين ؟ قالت : الى رجال لانلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فقلت : صفيهم لى . فأنشأت :

قوم همومهم بالله قد علقت ... فما لهم همم تسمو الى أحد
فطلب القوم مولاهم وسيدهم ... ياحسن مطلبهم للواحد الصمد !
ما أن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس ثياب فائق انق ... ولا لروح سرور حل فى بلد
الا مسارعة فى أثر منزلة ... قد قارب الخطو فيها باعد الابد
فهم رهائن غدران وأودية ... وفى الشوامخ تلقاهم مع العدد

فهذا الشعر وان كان ركيكا مهلهلا ضعيفا الا انه يصور لنا فى وضوح نفوس الصوفية وقلوبهم وما احتوت عليه هذه القلوب وهذه النفوس من فناء فى الله، وذكر له، واتحاد معه، بحيث أصبحت نفوسهم لا تفكر الا فيه وقلوبهم لا تنزع الا اليه . وبحيث أنهم تجردوا عن كل شهوة ، وخلصوا من كل لذة ، وتحرروا من هذه القيود الجسمانية التى تفسد على الانسان حياته الباطنية وتكدر صفاء سريرته النفسية .

وآية ذلك هى أن الصوفى دائم التصفية والتنقية لنفسه مما يشوبها من الاكدار . وهو فوق هذا دائم الحركة والاضطراب بدوام التجائه وافتقاره الى ربه . والتجاؤه وافتقاره هما اللذان يهذبان قلبه وينقيان نفسه ويضيئان جوانب هذه النفس وهذا القلب بالمعرفة الصحيحة الصادقة التى تكشف له عن حقيقة الله وماهية الاشياء . وعلى هذا ترى انه لابد للصوفى من دوام الحركة والاضطراب بدوام الافتقار والالتجاء وحسن التفقد لمواطن اصابات النفس .

ولنترك الآن الباب الخامس بعد أن وقفنا عند أهم ما اشتمل عليه ولنعرض للباب السادس حيث يحدثنا السهروردى عن مسألة لها قيمتها العلمية وخطرها العظيم فى تاريخ التصوف وفهم الاطوار التى مر بها فهماً صادقاً مستقيما . وأعنى بهذه المسألة مسألة الاصل الذى صدرت عنه كلمة (صوفى) والمصدر الذى أشتقت منه ونسبت اليه ، والمؤلف حين يحدثنا عن أصل كلمة صوفى يعرض

علينا أهم الآراء التي رآها القدماء واختلفوا فيها اختلافاً تجاوزهم الى المحدثين من المستشرقين وغير المستشرقين من علماء الشرق .

ولعل مؤلف عوارف المعارف أميل ما يكون الى أن هذه الكلمة ليست إلا نسبة الى الصوف. وهو يستمد في رأيه هذا الى أن الصوف كان لباس الانبياء فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف . وحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يلبس الصوف والشعر ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى .فأنت ترى أن هذا الكلام إن صح كان طبيعياً أن يختار المتصوفة لباسهم من الصوف وكان بديهيا أن تكون نسبتهم الى ظاهر لباسهم الذي ينسج منه . وهذا الرأي ملائم لما أخذ به الصوفية أنفسهم من زهد في ملذات الدنيا بصفة عامة وميل الى اللباس الخشن وأعراض عن اللباس الرقيق الناعم بصفة خاصة ناهيك بأنه يلائم ملاءمة تامة طبيعة الاشتقاق اللغوي . فيقال تصوف الرجل إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص . وفوق هذا كله فانه نظراً لتقلب أحوالهم ومقاماتهم ودوام تنقلهم لم يكن هناك أمر يقيدهم ويجمع هذه الاحوال وهذه المقامات المتنوعة . ومن هنا كانت نسبتهم الى ظاهر اللباس الذي اتخذوه ميزا لهم مشيراً الى ما يأخذون به أنفسهم من زهد وتقشف وورع . فكان ذلك أبين في الاشارة اليهم وأدل على حصر وصفهم . إذ أن ليس الصوف كان غالباً عليهم لتشبههم في ذلك بالانبياء والمقربين . ومن هنا ترى أن أن نسبتهم الى الظاهر أوفق وأقرب الى الاقناع من نسبتهم الى الباطن . فلو نسبوا مثلا الى حال ما، أو الى مقام ما، كان ذلك أقل دلالة وأدنى الى الغموض والابهام في الاشارة اليهم .

فمما تقدم ترى أن نسبة الصوفية الى الصوف أبين في تفهم حالهم وأدل على زهدهم وأقرب الى التواضع منها الى أي شيء آخر . وقد ذهب بعض أهل العلم الى أن تسمية الصوفية بهذا الاسم راجعة الى نسبتهم الى الصوفة وخلاصة هذا المذهب هي أنه لما كان الصوفية يؤثرون الذبول والخمول والانكسار والتواضع مثلهم في ذلك كمثل الصوفة الملقاة ، كانت تسميتهم بهذا الاسم نسبة الى الصوفة . وهذا الرأي فضلا عن انه ملائم للدلالة على ما انطوت عليه نفوس الصوفية من الاذعان والذلة والخضوع فانه ملائم أيضاً لطبيعة الاشتقاق اللغوي .

وهناك رأي آخر يتلخص في أن الصوفية سموا بهذا الاسم لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل لارتفاع هممهم واقبال قلوبهم على الله تعالى .

ورأي رابع ذهب فيه أصحابه الى أن تسمية الصوفية بهذا الاسم راجعة الى نسبتهم الى « الصفّة » التي كانت لفقراء المهاجرين في عهد النبي. على أن هذا الرأي وان كان صحيحا من ناحية المعنى إلا انه لا يستقيم من ناحية الاشتقاق اللغوي . فالصوفية يشبهون « أهل الصفة » من حيث أنهم فقراء مؤتلفون في الله مجتمعون في الله . وأصحاب الصفة هؤلاء كانوا نحوا من أربعين رجلا لم تكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر . كانوا يصرفون بياض النهار محتطبين ويقضون سواد الليل متعبدين . آثرهم النبي بحبه لهم وعطفه عليهم وبره بهم حتى انه كان يأكل معهم ويحث الناس على مواساتهم . هم الذين نزلت فيهم الآيه الكريمة . «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » والذين نزلت في أحدهم وهو ابن ام مكتوم هذه الآية الشريفة : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . » فكان ذلك عتابا للنبي ويقال انه كانت توجد في بلاد خراسان طائفة من أهل الصفة لجأت الى المغاور والكهوف ولم تسكن المدن والقرى . كان يسميهم أهل خراسان « شكفتية » لأنهم يطلقون على الغار لفظة « شكفت » فنسبوهم اليها . أما أهل الشام فكانوا يسمونهم « جوعية »

تلك هي اهم الآراء التي ذكرها السهروردي في أصل كلمة صوفي وقد أخذ بعدها في اظهارنا على ان هذه الكلمة تجمع المتفرق في الاسماء التي ذكرها الله في القرآن وسمى بها طوائف الخير المختلفة فقد سميت طائفة بالأبرار وأخرى بالمقربين وثالثة بالصابرين ورابعة بالصادقين الخ . . . وانت إذا انعمت النظر فيما اشتملت عليه قلوب الصوفية من بر وصبر وصدق وذكر لرأيت ان لفظة الصوفي قد احتوت كل ماتدل عليه اسماء هذه الطوائف .

ويختم المؤلف هذا الباب بذكر موجز لتاريخ كلمة صوفي فيقول انها لم تعرف في زمن النبي وانما عرفت في زمن التابعين . واثبت هذا بذكر كلام روى عن الحسن البصري قال فيه: «رأيت صوفيا في الطواف فاعطيته شيئا فلم يأخذه وقال : « معي اربع دوانيق يكفيني مامعي » على هذا ذهب بعضهم الى أن هذا الاسم لم يعرف الى المائتين من الهجرة . فكان أصحاب رسول الله يسمون الرجل صحابيا حتى اذا انقضى عهد النبي سمي من أخذ العلم عنهم تابعيا . ولما ان تقادم عهد النبوة وانقطع الوحي وأقبل الناس على الدنيا وتهافتوا على زخرفها انفردت طائفة بالعبادة والتقوى واعرضت عن الدنيا فكانت هذه الطائفة هي الصوفية «الاسم سمتهم . والعلم بالله صفتهم والعبادة حليتهم . والتقوى شعارهم . وحقائق الحقيقة اسرارهم » ؟

محمد مصطفى حلمي
ماجستير في الآداب